الصاعقة الرابعة عشرة: فديناك من ربعٍ وإن زدتنا كربا(*)

فَـديناكَ من رَبعٍ وإن زِدْتَنا كَـربا ... فإنَّكَ كنتَ الشرقَ للشمسِ والغَرْبا(١)

وكيفَ عـرفْنا رَسمَ منْ لم يَدَعْ لنا ... فـؤادًا لعِـرفـانِ الرسـومِ ولا لُبّـا

نزلْنا عن الأكـوارِ نمشي كَـرامَـةً ... لمن بانَ عنه أن نلمَّ به رَكـبـا(٢)

نَذُمُّ السحـابَ الغُـرَّ في فـعلِها بِهِ ... ونُعرضُ عنها كُلّما طلعتْ عتْبا

ومن صـحبَ الدُّنيـا طويلًا تقلبت ... على عينهِ حتى يرى صدقَها كذبا

وكيفَ التذاذي بالأَصائلِ والضّحى ... إذا لمْ يعـدْ ذاكَ النسـيمُ الذي هَبّـا

ذكـرتُ به وصـلاً كـأنْ لم أفـزْ بِهِ ... وعـيشًـا كـأنّي كنتُ أقطعهُ وثبا

وفـتّـانةَ العـينين قـتـالة الهَـوى ... إذا نفحتْ شـيخًـا روائحُـها شَبّـا

لهـا بَشَـرُ الدُّر الذي قُلّدَتَ بِهِ ... ولمْ أرَ بدرًا قـبْلَهـا قُلّد الشّـهـبـا

فيا شوقِ ما أبقى ويا لي من النَّوى ... ويا دمعِ ما أجرى ويا قلبِ ما أصبى

لقـد لَعبَ البينُ المشتُّ بهـا وبِي ... وزوَّدني في السَّيرِ ما زوَّدَ الضّبا(٣)

ومن تكنِ الأسدُ الضـوارِي جُدودَه ... يكنْ ليلهُ صُبحًا ومطعمهُ غصبا

ولستُ أبالي بعـدَ إدراكِيَ العُلى ... أكـان تراثًا مـا تناولتُ أمْ كَـسْبـا؟

(*) مناسبة القصيدة: يمدح بها سيف الدولة، سنة ٣٤١هـ.

(١) الكرب: الحزن.

(٢) الأكوار: رحال الجمال. نلمّ: ننزل.

(٣) المشتت: المفرق. الضب: دابة معروفة.

فـربَّ غـلامٍ علَّمَ المجـد نفـسَـهُ كتعليمِ سيفِ الدولةِ الطعنَ والضَّربا
إذا الدولةُ استكفتْ به في ملمَّةٍ كفاها فكانَ السيفَ والكفَّ والقلبا
تُهابُ سُيُوفُ الهندِ وهي حدائدٌ فكيفَ إذا كانتْ نزاريّةً عُرْبا[١]
ويُرهبُ نابُ الليثِ والليثُ وَحدَهُ فكيفَ إذا كان الليوثُ له صَحْبا
ويخشى عُبابُ البحرِ وهوَ مكانهُ فكيفَ بمنْ يغشى البلادَ إذا عَبّا[٢]
عليمٌ بأسرارِ الدّياناتِ واللُّغى له خَطَراتٌ تفضحُ الناسَ والكُتبا
فبوركتَ من غيثٍ كأنَّ جُلُودَنا به تنبتُ الدّيباجَ والوشيَ والعَصْبا[٣]
ومن واهبٍ جزلًا ومنْ زاجرٍ هَلًا ومن هاتكٍ درْعًا ومن ناثرٍ قُصْبا[٤]
هنيئًا لأهلِ الثغرِ رأيكَ فيهم وأنكَ حزبَ اللهِ صرتَ لهم حِزبَا
وأنكَ رُعتَ الدهرَ فيها وريْبُهُ فإنْ شكَّ فليحدثْ بساحتِها خَطبا
فيومًا بخيلٍ تطردُ الرومَ عنهُمُ ويومًا بجودٍ تطردُ الفقرَ والجدبا
سراياك تترى والدُّمستُقُ هاربٌ وأصحابهُ قتلى وأموالُهُ نُهبى
أتى مرعشًا يَستقربُ البعدَ مقبلاً وأدبرَ إذ أقبلتَ يستبعدُ القربا[٥]
كذا يتركُ الأعداءَ منْ يكرهُ القنا ويقفلُ منْ كانتْ غَنيمتُهُ رُعبا

(١) نزارية: نسبة إلى قبيلة نزار المعروفة.
(٢) عباب البحر: معظمه. يغشى: يغطي. عبَّ: زخر وكثر موجه.
(٣) العصب: ضرب من برود اليمن.
(٤) القصب: المعى.
(٥) مرعش: المدينة التي بناها سيف الدولة.

وهلْ ردّ عنه باللُّقانِ وقوفُه ... صُدُورَ العَوالي والمُطهَّمَةَ القُبَّا[١]

مضى بعدما التفَّ الرّماحان ساعَةً ... كما يتلقّى الهُدبُ في الرّقدةِ الهُدبا

ولكنه ولّى وللطَّعنِ سَورَةٌ ... إذا ذَكَرتْها نفسُه لمسَ الجنْبا[٢]

وخلّى العذارى والبطاريق والقُرى ... وشُعث النصارى والقرابينَ والصُّلبا[٣]

أرى كلَّنا يبغي الحياةَ لنفسِهِ ... حريصًا عليها مُسْتهامًا بها صَبّا

فحُبّ الجبانِ النَّفسَ أوردَهُ البَقا ... وحُبُّ الشجاعِ الحربَ أوردهُ الحرْبا

ويختلف الرّزقانِ والفعلُ واحدٌ ... إلى أن يرى إحسانُ هذا لِذا ذَنبا

فأضحتْ كأنَّ السورَ من فوقِ بدئِهِ ... إلى الأرضِ قد شَقَّ الكواكبَ والتُّربا

تصدّ الرياحُ الهوجُ عنْها مخافَةً ... وتفزعُ فيها الطيرُ أن تلقُطَ الحَبّا

وتَردي الجيادُ الجُردُ فَوقَ جبالها ... وقد ندفَ الصِّنَّبرُ في طُرْقها العُطْبا[٤]

كَفى عَجَبًا أن يَعجَبَ الناسُ أنهُ ... بنى مَرْعشًا ؛ تبًّا لآرائهم تَبّا

وما الفرقُ ما بينَ الأنامِ وبينهُ ... إذا حذرَ المحذورَ واستصعبَ الصَّعبا

لأمرٍ أعدَّتْه الخلافَةُ للعدى ... وسمّته دونَ العالمِ الصارمَ العَضْبا

ولم تفترقْ عنه الأسنةُ رَحمةً ... ولم تتركِ الشّأمَ الأعادي لهُ حُبّا

---

(١) القُبّ: الضامر.

(٢) السورة: الحدّة.

(٣) الشعث: جمع أشعب: وهو مغبرُّ الرأس.

(٤) ردى الفرس: صفة بين العدو والمشي. الصنبر: الريح الباردة. العطب: القفر. وهو هنا الثلج.

ولكنْ نفاها عنه غيرَ كَريمَةٍ كريمُ الثنا ما سُبّ قطُّ ولا سَبّا

وجيشٌ يثني كُلَّ طودٍ كأنَّهُ خريقُ رياحٍ واجهت غُصُنًا رَطْبا[1]

كأنَّ نجومَ الليلِ خافَتْ مغارَهُ فمدّتْ عليها من عجاجتِه حُجبَا

فمنْ كان يُرضِي اللَّؤمَ والكفرَ مُلكُهُ فهذا الذي يُرضي المكارمَ والرّبّا

(١) الخريق: الشديدة الهبوب.

obeikandl.com